العين البريئة .. هربرت ريد في سيرته الذاتية

٢-١

صلاح نيازي

سيرة هربت ريد READ الذاتية: "العين البريئة" أصغر ما كُتبَ في هذا الباب باللغة الأنكليزية (أقل من ثمانين صفحة متوسطة الحجم)، مع ذلك فقد وضعها النقاد في مصاف أعلى ما كُتبَ من سير ذاتية. إنها تحفة بين التحف. ولكنها مختلفة-كل الاختلاف- عن أية سيرة سواها.

يقول الناقد جون Naughton :هربرت ريد أصبح كاتباً مشهوراً عن علم الجمال والفلسفة في الفن، ومفسراً متبحراً لحركة الحداثة. لكن وبمعنى ما، فإن أعظم مخلفاته سيرته الذاتية الصغيرة التي كتبها عام ١٩٣٣ (وأعيد نشرها هذا العام)، وفيها يسترجع معالم الطفولة الريفية وأصواتها وروائحها ومشاعرها. إن العين البريئة أكبر وصف مثير للطفولة لم أقرأ شيئاً شبيهاً له.

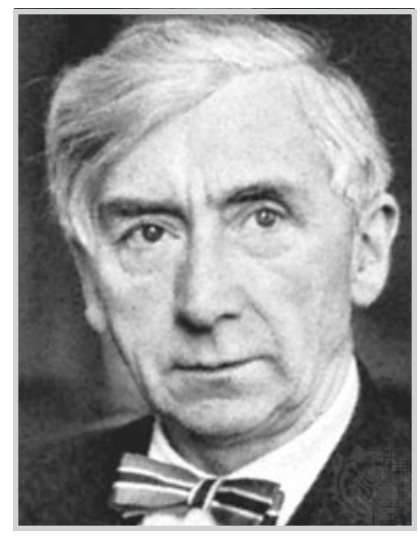
هربت ريد

ويقول الناقد كومبتون : Makenzie استُقبلت العين البريئة كإحدى تحف هربرت ريد. هي استكشاف لأصول منابع الخيال، وسبر تأثير حياته الأولى عليه،من دون ميوعة حادة. لقد أسرت أيام الطفولة كما يبدو باتقان، شأنها شأن كل الشتاء حين يؤسر في بلّورة ثلج. لكن لماذا كل هذا الاهتمام بهذه السيرة الذاتية القصيرة؟ وما أهميتها للقارئ العربي؟ وهل يمكن اعتبارها نموذجاً لكتاب السير الذاتية؟

أولاً، إن السيرة الذاتية تأخذ أهميتها من أهمية صاحبها. وهربرت ريد غني عن التعريف حقاً. فهو شاعر وناقد وروائي (برغم أنه لم يكتب إلا رواية شاعرية واحدة هي الطفلة الخضراء، وكتبه كما يقول أحد النقاد يقرأها كل تلميذ في الفن بإنكلترا وأمريكا. مهدت هذه الكتب الطريق إلى زيادة الاهتمام في الفنون البصرية في الخمسينيات والستينيات، كما أدت إلى تحرير للشكل لم يُسمع به من قبل.

يعلق النحات الإنكليزي الشهير هنري Moore على كتاب التعليم من خلال الفن لهربرت ريد : إنه غير كل موازين نظامنا التعليمي وساعد بصورة غير مباشرة في العدد الأكبر من الفنانين الموهوبين الذين وضعوا إنكلترا في المشهد العالمي. في الحقيقة، لولا كتابات ريد النقدية، لما قُبلت بإنكلترا- في الأقل- مدارس الرسم الحديثة التكعيبية والتعبيرية والسريالية والتجريدية والبنيوية.

أما أهم كتب هربرت ريد فهي: "معنى الفن"، و "الفن في الوقت الحاضر"، و "سجل وقائع براءة وتجربة"، و" التجربة المضادة"، و" مقالات في النقد الأدبي" و" مع معطف بألوان كثيرة" ومجموعة شعرية ورواية" الطفلة الخضراء."

برغم أن هربرت ريد لم يكمل دراسته الجامعية، إلا أنه اصبح أستاذ الفنون التشكيلية في جامعة أدنبرة باسكتلندا، وعين بمناصب أكاديمية في جامعة كيمبردج وليفربول في إنكلترا، وجامعة هارفرد بالولايات المتحدة. وحصل على جائزة "إيراسموم" الهولندية عام ١٩٦٦ لإسهاماته في الثقافة الأوربية.

لكن "العين البريئة" لا تتحدث عن كل هذا، لا تتحدث عن عمله في أحد المصارف، ولا عن التحاقه بالجيش أثناء الحرب العالمية الأولى، ولا عن أصدقائه من الأدباء والشعراء والرسامين، ولا عن زوجتيه، ولا عن أطفاله. ذلك أن هذه السيرة الغريبة من شتى الوجوه، معنية بالطفولة، أو بتعبير أدق، بالسنوات التسع الأولى من طفولته. آمن هربرت ريد أن الحياة جميعها صدى لمشاعرنا الأولى، ونحن نبني وعينا وكل وجودنا الثقافي على تنويعات تلك المشاعر الأولية وتراكيبها.

تخلو هذه السيرة من أي حوار من أي نوع بين أفراد العائلة. إنها مكتوبة بصمت المختبرات. بدأب أجنحة النحل. كلماتها مثل حبوب الفيتامينات بالمقارنة إلى الموائد الدسمة المغثية. من أقانيمها، النظام واتقان العمل الكاد لديمومة العيش، بعرق الجبين.

لا تعود أهمية هذه السيرة إلى استرجاع أدق الأصوات، ولا إلى استحضار فصول الطبيعة، ولا إلى أسلوبها الصافي، فحسب، بل إلى موازاة مراحل تلك السيرة بالتطور البشري. بكلمات أخرى، فإن السنوات التسع الأولى من حياة الطفل، ما هي إلا الأدوار التي مرت بها البشرية-كما يبدو -، وهذا هو سر عمقها، وسر عبقرية هذا الكاتب.

قسم هربرت ريد، سيرته إلى ثلاثة عشر جزءاً صغيراً (لا بد أن لهذا الرقم دلالة). قد يوحي هذا التقسيم بالمراحل التي أشرنا إليها قبل قليل.

نتوقف بتأمل عند الجزء الأول حيث يصف ريد الوادي الذي كانوا يعيشون فيه. يقول ريد: "حينما ذهبت إلى المدرسة علمت أن الوادي الذي كنا نعيش فيه، كان في يوم ما بحيرة، لكن منذ زمن بعيد أخذ البحر ينخر في التلال إلى الشرق، فأطلق الماء العذب مخلفاً سهلاً خصيباً. بيد أن فكرة كهذه، كانت ستبدو غريبة على عقلي البريء. كان بعيداً جداً هذا البحر المرعب".

هذه المعلومة عن الوادي، لم تأته من البيت، ولكن من المدرسة، وفي ذلك أكثر من دلالة. فمن ناحية، يمكن اعتبار المدرسة الوعاء الذي كانت تصب فيه التجارب والأساطير والخرافات، ومن ناحية تربط الإنسان القديم وكأنه في العصر الجليدي بالإنسان الحديث. بهذه البداية يكون الكاتب قد مهد لعمق تاريخي سحيق، لا سيما في تعبيره: كان بعيداً جداً هذا البحر المرعب. ولكن لماذا هذا ولماذا المرعب؟ ثم إن حركة البحر مداً وانحساراً ضد التلال وتمكنه من فتح فجوة في التلال وانهمار الماء العذب الذي لا بد له من رغوة في هذه الحالة، توحي بحركة حسية مخصبة.

بعد أن يوصل الكاتب الماضي المنقطع بالحاضر، يبدأ بتجذير المكان وتعيين موقع مزرعتهم في الوادي في الجانب الغربي منه: "ولأن كل أرضنا كانت مستوية استواء سطح البحيرة التي كانت، فإننا كنا نرى حوالينا التلال الضبابية والأهوار إلى الشمال، والصحارى إلى الجنون فهي تلتقي في صورة ملغزة في الشرق، حيث كانت بعيدة أكثر. هذه السلسلة من التلال كانت الأقرب إلى الجنوب، في الأقل من حيث التأثير، لأنه حينما تنحدر الشمس في الغرب، فإن نوافذ مزرعة ستامبر في الجنوب تمسك الأشعة المتقدة وترميها علينا، لافتة عيوننا دائماً في ذلك الاتجاه. لكننا لم نسافر ألى أبعد من تلك التلال جنوباً، لأن المعبد والسوق وهما المكانان الوحيدان في الخارج اللذان نذهب إليهما يقعان في الشمال على بعد خمسة أو ستة أميال. كنا-بحكم العادة نواجه الشمال، كان الجنوب إلى الوراء".

ينتقل الكاتب بعد ذلك، من ذلك العالم الجغرافي الواسع نسبياً إلى مكان أكثر حميمية، ومعه ينتقل من" نحن" إلى "أنا" :

"بدا لي، على هذا، أنني أسكن في حوض واسع وضحل مثل مغرفةحليب في المبلنة، ولكن قعر الحوض كان مرقشاً بالمراعي وحقول الذرة. كانت إطارات الحوض هي الألوان الزرقاء والبنفسجية الخفية للأراضي البرية. هذا الحوض كان عالمي، ولم تكن لدي أية فكرة عن أي عالم أوسع، لأن ما من غريب جاء إلينا منه، ولم نذهب نحن إليه قط... يبدو الحوض في بعض الأحيان واسعاً ولا سيما في نهار صيف صاح. لكن ما أن يحل الغروب حتى ينكمش فجأة. التلال الضبابية تقترب، مع الليل تطبق علينا: يصبح مركز العالم شمعة تضيء من نافذة المطبخ".

هذه واحدة من مهارات هربرت ريد، أي قدرته العجيبة في استخدام الألوان، ولا سيما النور الصغير في ظلمة غامضة واسعة، حتى لتبدو كل جملة جزءاً من لوحة ولكنه جزء مسكون ونابض. إن ذكره للحليب والحوض واللونين الأزرق والبنفسجي، وكأنما لونا عروق جنين، وجهله التام بالعالم الخارجي، قد يصرف الذهن إلى التكون الأصلي للإنسان داخل الرحم.

قشور الباذنجان
السخرية عن دونكشوتية السلطة

علي حسن الفواز

يواصل الروائي والقاص العراقي عبد الستار ناصر اشتغالاته الروائية المتميزة، تلك التي وجدت في قاع الواقع العراقي، تفاصيله واسراره مجالها الاكثر اشتهاء وتحريضا على الاستغراق في مناخات الكوميديا السوداء والسخرية المرة التي اكتظت بها عوالمه، اذ يبدو خطابه السردي الساخر والساخط على كل مظاهر ما تصنعه السلطة والمكان والجسد والوقت والبطولات العائمة من ارتكابات قهرية واخصائية، هو الاغواء الذي يدفعه للذهاب بعيدا باتجاه التوغل في اعماق الزمن العراقي السياسي والاجتماعي والثقافي المكشوف على المحنة دائما..

في رواية(قشور الباذنجان) الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ نهاية٢٠٠٧ تتمظهر هذه السخرية من دونكيشوتية السلطة ومتاهة ما صنعته الحروب والاحتلالات، عبر تلمس(موت الكائن) وضياعه في غابة صراعاتها الدامية، غابة حضورها وغيابها في آن، يشحنها الروائي عبر توظيف رؤيته البصرية التي ترهن خطابها باكتشاف الخارج، مثلما يجوس فيها عبر لغته الحادة، العارية، الغائرة بشفراتها في مرموزات الجسد الحي، اذ يتلمس الروائي بشاعة ما يتركه موت هذا الكائن الحالم والعاشق والبطل من تراجيديا مرعبة، مثل ما تنحني روايته على الكثير من الغرابة، تلك التي يجسدها البطل الراوي المصاب بفوبيا السلطة ورعبها، وهوس الشهوة الوحشية، هو يمارس لعبة تلصص غريب، يكشف من خلالها رعبه الشخصي وصدمته التي تميط الغطاء عن اليوميات الملتاثة بتفاصيل الرعب، مثلما تضعه عند طقوس الانثى الشهية، تلك التي تبدو انوثتها المحرمة، هي مجاله التعويضي للاحتجاج العابث على كل شي. الرموز والعلامات الجديدة والصادمة في تفاصيل المكان العراقي، ظواهره، طقوسه، سجونه، شوارعه، اذ يفقد السارد امامه احساسه بسطوة العلامات القديمة وسيولتها في الذاكرة وخدعة اطمئناناتها القديمة، حيث تخضعه هذه الاكتشافات الى وهم رقابة مذعورة، تلامس يومياته الضاجة وعلاقاته الفالتة التي لاتترك الا بقايا اخطائها وغبارها الخانق على الوجه، واحساسا عميقا بالغثيان، يلامس الروائي من خلال ايقاعها النفسي الضاغط في قاع المكان والنفس والجسد، حيث يبدو الانسان/بطله عند تفاصيل رعبها وجنوحها وخطيئتها وكأنه بخفة وهشاشة (قشر الباذنجان)

عبر رؤيته الساخطة والساخرة ينحو الروائي باتجاه تلمس(ظاهرة الاغتراب)الداخلي للكائن، اذ يبدو كائنه المنتهك و(المغتصب من خاطفيه) والحالم والظالم والمتفرج والمعطوب وجوديا وجنسيا واخلاقيا، امام قسوة موت واقعي يمثل (الاغتراب)ثيمته الظاهرة، مثلما هو امام سلسلة من الافراغات العقلية التي تجعل هذا الكائن فاقدا لمنظومته الاتصالية بالاخرين، يعيش ازمات وحدته مصابا بفوبيا الخارج بكل تمظهراته. ولاشك ان هذا التوصيف النفسي لكائنه المأزوم يحدد طبيعته المشوهة التي تفترض مواصفاته ك(بطل لهذا الزمان).

هذا الكائن/البطل يملك برغم رعبه العميق الكثير من الكشف والتوغل الباعث على التأويل، اذ هو البطل المراقب والمتلصص، الذي يثير اسئلة غريبة امام احساسه الطاعن بالمرارة والخوف والشبق، فهو يواجه ضغوط الحياة عبثيتها وقسوتها وفزعها، مقابل اغواءات اخرى تورطه بالمزيد من الفزع الداخلي ، هي اشبه بالاغواءات العابثة التي انطلق فيها (ميرسو) الكاموي، تلك التي تحرض بطل عبد الستار على الاستخفاف بكل ما حوله، وتجاوز احساسه برعب الخطيئة والاثم والذهاب الى تماه استعاري بمواصفات تشبه تلك الخطيئة الاخلاقية تماما(سحبتني الى هناك صوب فراشها، اول مرة في حياتي ارفض ان اصحو من حلمي، ادري ان الحلم لن يطول، لكن انيسة رمت بجسدها على فراش النوم، تنظر الى هذا الخائف المرعوب وهي تضحك) ص ١١٦مثلما تحرضه استعارة اخرى اكثر رعبا، تلك التي تنسحب من الماضي والمجهول التي يمثلها الاخر(رجل الأمن/شمام الدم) الصانع القديم لرعبه(جاء يشتري غفراني بالعملة الصعبة، لم يسأل عني ، أعطى اختي سلافة كيسا من اكياس التسوق وقال لها: سآتي في وقت اخر، اختفى بين ممرات المحلة بسرعة، فتحت الكيس ورأيت مئات الدولارات وهي تحمل صورة فرانكلين) ص٤٣

هذا الاخر(نموذج الشخصية الساقطة بعد الاحتلال) هو صورة اساقطية لتفككك الواقع المشدود الى رعبه ومهيمناته القديمة، يحمل معه الكثير من الاسئلة التي تتقابل فيها الصور والدلالات، فهو نموذج الجسد/الشهوة الذي لايأبه للخطيئة الاخلاقية، مثلما يبدو هو نموذج السلطة القديمة/رجل الامن، وضحيتها في آن، اذ يبدو التراكب بين النموذج ونقيضه، هو ايضا مزاج الحياة العراقية القلق والازدواجي المفتوح على تضادات غريبة ومثيرة على الفزع(الساعات ماعادت تشير الى الوقت، والوقت نفسه ضاع من ذاكرة الناس وهم يتحركون على رمال تأخذهم الى قاع الارض) ص١٥٨

تحمل الرواية هاجسا توصيفيا محتشدا بالتفاصيل المرعبة التي اجتاحت الحياة العراقية بعد٩/٤/ ٢٠٠٣ يتلمس من خلالها الروائي مقاربة حيوات القاع عبر مقاربة هذه التفاصيل المتورطة قهريا بتداعيات الاحداث المشدودة الى سؤال الرعب، ما الذي حدث؟ من انتصر؟ من هزم؟ هل جاءت القيامة على عجل؟ هل السلطة كانت من قش لتسقط بسهولة؟ اين جبروتها وجيوشها ونظامها الصوتي العاتي؟ هل تختزن الحياة العراقية كل هذا الموت حقا؟ هذه الاسئلة تدعو للرعب مرة اخرى، وربما لاسئلة تتوارد كثيرا عند ابطاله الذين اخذتهم الدهشة والغرابة والخوف(الحياة لم تعد صحيحة بعد التاسع من نيسان ٢٠٠٣، ولم تكن صحيحة قبل ذاك التاريخ، القصة ومافيها ان الشعب كان يموت سرا وصار يموت علانية في وضح النهار وامام شاشات التلفزيون) ١٥٩

السلطة، الاحتلال، المسالخ اليومية، المقابر المزدحة بالزبائن، تتحول كلها الى افكار للتساؤل حول ماجرى فعلا، والى ايهامات بالخوف مما جرى، وربما الى استدعاءات تسحب التاريخ القديم بقوة قهرية الى اللحظة الحاضرة الغائمة، اذ يتذكر بطله كيف مات نوري السعيد؟ وكيف رآهم وهم يسحلون (الوصي) على عرش العراق في جميع طرقات المدينة؟ مثلما دعته بعدئذ الى الوقوف عند موت صديقه حيران الذي رافقه هوس الرحلات الى بيروت والقاهرة ودمشق وشوارعها الضاجة باللذات والنساء اللامعات(في الطب العدلي وجدناه، بعد اسبوع واحد عثرنا عليه، محض جثة مركونة في صندوق الموتى)٢١٤

هذه التفاصيل التي يلامس الروائي شفرات رعبها، تتحول الى مركب سردي//توصيفي له موجهاته الظاهراتية التي يسعى من خلالها الروائي الى الايهام بوعي قصدي يعيد انتاج الظواهر في الزمن السردي، والذي هو مقابل للزمن السياسي العراقي، يجترح له صناعة (مروية)، تحتمل الكثير من(الحكي) تلك يمكن أن نقرأها بوعي هو اقرب الى سياق (التعرف) الذي يقارب بين التجربة ومخيالها، لان هذه المروية تصنع لها نصا، او وثيقة هي اكبر من الوثيقة/التجربة التي بدت شاحبة ازاء ما جرى. واحسب ان هذا الانزياح هو ما يدفع الروائي نحو المزيد من التوغل في الواقع بكل تفاصيله الفاجعة، مقاربة المستويات النفسية لتلصصات بطله/صاحب السيرة، حيث يندفع هذا البطل نحو تعرية ذاته المغتربة عن تاريخها الاخلاقي، مثلما يندفع نحو تعرية الشارع/المكان/المدينة عبر استبطان وجوه السلطة القديمة والحاضرة، عبر استقراء تفاصيل المدينة الجوانية، يومياتها وهوسها وضحالتها التي اسهمت في صناعة ازمته، اضطراب شهوته، اغترابه عن المكان/الوطن،وعن الزمان/الوجود، مثلما وجد في التفاصيل المباحة واللامتناهية بعد الانهيار الغرائبي الذي حدث بعد الغزو العسكري للعراق، من انهيار لكل شيء، السلطة، العلاقات اليومية، الصداقة، الحب، الجسد، المكان. والتي يبدو وكأنها متنفس للكشف عن استبطانات عميقة تعويضية، تطهرية، هي اقرب للقراءة انثربولوجية للشخصية العراقية وميلها للعنف، حيث حفل التاريخ السياسي في العراق عبر صراعاته وانقلاباته الدامية بالكثير من هذه الظواهر، وهذه الثيمة الثانوية وجد فيها الروائي مجالا للكشف عن طبيعة الشخصية العراقية، مزاجها النفسي ونظامها الاجتماعي والثقافي واللغوي.

رواية(قشور الباذنجان)اول روايةعراقية عن الزمن النفسي واليومي لاحداث ما بعد٩/٤، وضع فيها عبدالستار ناصر وهو من ابرزقصاصي وروائيي الستينيات في العراق، كل خبرته الحكواتية لسرد تداعيات فاجعة عن عالم باكمله، عالم صنع الخوف من السلطة القديمة نصف احزانه، وصنعت الحروب والاحتلالات والحصارات نصفها الاخر. وهذا العالم الذي اختزله الروائي في منظور سردي، اصطنع له زمنا امتزج فيه الواقع مع الايهام، اليوميات مع الصوت الداخلي، حاول من خلال هذه التوليفة الى ابراز خصائص حيواته، صراعاتها، ازماتها الداخلية، اوهامها ، اذ اقترن تقديم هذا الزمن ايضا مع تقديم صورة اعمق لبطله(الواقعي والوجودي) الذي يراقب ويتلمس وينفر عن كل شيء ويغوص في كل شي، بوصفه الرائي أو بوصفه صاحب الكينونة القلقة التي تسائل نفسها، بنفس القدر الذي تسائل فيه طريقة وجودها كما يقول بول ريكور.. ومن هنا تضعنا هذه الرواية امام علاقة اشكالية بين الزمن والسرد، بوصفها منتجة لهوية سردية تعبر عن العالم العراقي منظورا اليه من خلال السرد. واعتقد ان هذا المنحى السردي وضعنا امام مزيج من الدروس والافكار التي يبدو فيها الزمن الداخلي/الانساني هو الزمن الحاضر الذي يتجاوز أي مفهوم اخر للزمن، لانه زمن الشخصيات، تلك التي تتحرك داخله برعبها، مثلما تقف عند حافات الخواء والمتاهة والاحساس العدمي بالموت.

الرواية حاشدة بالتفاصيل والرعب والقسوة، مثلما هي حاشدة بعوالم الروائي الشخصية وموجهاته (الاستشهادات) التي يضعها في مقدمة وحدات الرواية التسع، وكأن يجعلها بمثابة شفرات تمنح لغته الحكواتية المزيد من الابصار والحميمية، تلك الحميمية التي تمنحه شهوة البحث عن ضحايا هذه التفاصيل، اولئك الذين استلبتهم الحروب الصغيرة والكبيرة وحروب اليوميات والسجون والتلصصات والضياع العديد من الصفات التي تبدو حقا وكأنها الاقرب الى سحرية الحياة المعادلة للموت.

لماذا لا نقرأ ؟

*هشام بن الشاوي

"إن منتج الكتاب هو مستهلكه ! كأنما الصوت يتغذى على رجع صداه !"

(إلياس فركوح)

من البديهي أن يسيل هذا الموضوع الكثير من المداد، والذي يؤرق المثقفين والمبدعين والمهتمين في زمن عرف فيه الكتاب حالة عزوف لا مثيل لها، فتدهورالوضع من سيء إلى أسوأ، في ظل الإقبال المتزايد على الوسائل السمعية والبصرية، والإدمان على غرف الدردشة (التشات)، ورسائل (الإس.إم.إس) على شاشات الفضائيات الغنائية تحديدا.. ولن تندهش لو سألت - ومن الماء إلى الماء - أي طالب علم أو أدب عما يعرف عن اسمي محمود درويش ونانسي عجرم ؟؟

فمن المسؤول عن تكريس هذه البلادة ؟؟

يرى المفكر السعودي ابراهيم البليهي المسكون في كتاباته ببنية التخلف أن هذه البنية شديدة التعقيد فهي ليست بنية بسيطة، بل إنها تقوم على مجموعة من البنى مثل بنية الجهل وهو يدعو إلى تأسيس علم جديد باسم (علم التخلف) تتفرع منه مجموعة من العلوم يأتي في مقدمتها (علم الجهل)، فهو يرى أن التعليم في المدارس والجامعات معني بإعطاء المعلومات، أي أنه محصور بتجاوزالجهل البسيط، لكنه غير مهتم بالجهل المركب وهو الحصن الأمنع لبنية التخلف، إنه يعتقد أن المعارف العلمية تجد الأذهان أمامها موصدة، وأن توطين الروح العلمية يقتضي فك أقفال العقل وإزالة موانع القبول.

ولن يحس المرء بالغبن حين يعلم - مثلا- أن طلاب الصفوف الثانوية العلمية والتقنية ينظرون إلى الأدب- لا سيما الشعر والقصة - نظرة دونية ... و قد لمست هذا لدى الكثيرين، إذ لا يهتمون بالمواد الأدبية، وربما نفس الشيء عند طلاب التوجه الأدبي، لكن ما أثارني حقا عند تصفحي أحد مقررات اللغة العربية.. جعلني أسأم ما يسمى بالأدب العربي، وخيل إلي أنه مقرر فكري أو فلسفي عقيم عكس مقررات المناهج الدراسية السابقة، التي كانت تحبب إلى الطلاب اكتشاف هذا العالم الباذخ بدءاً من امرئ القيس إلى شعراء العصرالعباسي ...

إنه جيل لا يقرأ جريدة واحدة في اليوم أحرى أن يتصفح كتابا، والوضع الأكثر كارثية أن هناك من صار ينسخ شبكات الكلمات المتقاطعة من الجرائد، ويبيعها منفردة، (تباع عند ماسحي الأحذية وبائعي السجائر بالتقسيط(!، والتي تشد أغلب قرائها إضافة إلى الصفحات الرياضية والترفيهية...

وحتى تجربة "كتاب في جريدة" التي تبنتها منظمة اليونسكو قبل إحدى عشرة سنة، لم تجد صدى طيبا إلا عند المهتمين بالشأن الأدبي، ومؤخرا جرائد كثيرة تنصلت من احتضان التجربة، ولم يعد بإمكاننا متابعة بقية الإصدارات!! ولا ننسى تجربة دار المدى التي توزع كتيبا مجانا - كل شهر - مع جرائد نخبوية تقريبا، كصحيفة "القاهرة" التي تصدر عن وزارة الثقافة المصرية، والتي لا يعرف عنها قراء الكلمات المتقاطعة شيئا، كما يجهلون الملحقات الثقافية بالجرائد الوطنية التي تلقى جانبا.. بمنتهى الاستخفاف، في انتظار مصير أكثر قسوة، لا يسمح الحيز بذكره !!

وبمنتهى الأسى أستحضرأحد الكتبيين الذي كنت أجد في رفوف مكتبته روايات ومجاميع قصصية نفدت طبعاتها لكتاب عرب مشاهير، ولأن تجارة الأدب لا تطعم خبزا، تخلص منها وصار يعرض على الرصيف (قبالة وبجوار محله) كتب الطبخ والحلويات، والتنجيم، والسحر والشعوذة ، وكتبا دينية تخاطب المسكوت عنه في الثقافة الشعبية، كآداب الزفاف وهلم إثارة ...

أحد تقارير منظمة اليونسكو يفيد بأن " الفرد العربي يقرأ أقل مما يقرأ الفرد الياباني ب١٤٤ مرة، الشيء الذي يعني أن مليونين من اليابانيين يقرأون بقدر ما يقرأه (أو حتى أكثر) ٢٦٠ مليوناً من العرب".

يقول المفكر والباحث العربي المقيم في أوربا إبراهيم العبادي في حوار معه أن : " في المنطقة العربية عندما يتم إحصاء جميع الكتب المطبوعة بما فيها كتب الأطفال، فإنها لا توازي ما يطبع في الكيان الصهيوني أو حتى في المجموع العام لا توازي مع ما يطبع في الجارة تركيا أو حتى في إيران مثلا هناك، هذه الأزمة واضحة في المنطقة العربية، وكما قلت هناك عزوف كامل عن القراءة، هذه القضية تحتاج إلى معالجة جدية، المعالجة لا يمكن أن تتم إلا بما نسميه استخدام الكثير من المحفزات لتنشيط عملية القراءة، هناك في الغرب مثلاً من النادر أن تجد الشباب في القطارات أو في حافلات النقل لا يقرأون. هذه القضية لا تنطبق على المهاجرين العرب ، لا يقرأون إلا الكتاب المدرسي، الكتاب الجامعي وحتى إذا قرأ الكتاب الجامعي فهو يقرأه من أجل النجاح، يعني ليست هناك حالة من الفضول الثقافي والعلمي والفكري إلا عند القليلين، هذه حقيقة أزمة عربية بامتياز وحتى يمكن الخروج من هذه الأزمة لابد من أن يكون هناك نوع من النشاط الذي ترعاه الحكومات، ووزارات الثقافة، ووزارات التعليم، ومحاولة نشر الكتاب في المراحل التعليمية الأولى في المدارس الابتدائية، وتشجيع الطلبة أيضا في المدارس الثانوية على القراءة حتى إذا كبر الإنسان يمكن أن تكون عنده عادة القراءة، عادة مترسخة عنده هناك الكثير من البؤس الواضح في عملية صناعة الكتاب وترجمة الكتاب وتوزيع الكتاب وهي أزمة خطيرة بالفعل."

إنها الأمية الثقافية في أبهى حللها...

والطريف في الأمر، أني وصديق كاتب - خلال تجولنا في معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب الأخير- وبغض النظر عن الارتفاع الصاروخي لأسعار الكتب وضعف الإقبال مقارنة بالسنوات السابقة، لا حظنا أن مبدعين وازنين صاروا (تجار كتاب) مسكونين بهاجس الربح والخسارة فقط.. وهنا لا نقصد المعنى القدحي للصفة. هي مجرد ملاحظة عابرة وبرئية ، لكن ما أثار الانتباه حد المضايقة، أنه عند مغادرة بوابة المعرض.. كان زوار المعرض يتعرضون لما يشبه التفتيش البوليسي ويطالبون بالإدلاء بفواتير شراء الكتب.. كيف نحارب الأمية الثقافية ونحرض ناشئتنا على حب القراءة في حين نعامل زوار المنتدى كزبائن سوبرماركت لصوص ؟؟ فعلق صديقي: حتى لو أعطيت الكتاب- مجانا - لأي شخص ليقرأه سيرميه ... !!

قبل أسبوعين، أعددت ملفا أرسلته إلى الكثير من الأصدقاء، هذا نصه : " يعاني الكتاب الأدبي غربة قاتلة.. أسماء وازنة لا تطبع أكثر من ٣٠٠٠ نسخة، و أحيانا لا يتجاوز الواحد منهم الألف نسخة...!! وهو رقم هزيل إذا قورن بأعداد الأقراص المرنة لأية امرأة تجيد تسويق لحمها الرخيص مع أغانيها الهابطة....

أحيانا، يغامر المبدع بقوت أطفاله، ويطبع كتابا (على نفقته الخاصة) ، لكن ينتهي به المطاف إلى أن يصفر ورقه ويبهت في واجهات مكتبة مهجورة أو على رصيف بائع مجلات وجرائد...

ناهيك عما يسمى بحفلات التوقيع، والتي يحس فيها المبدع أنه أشبه بمتسول.. حين يجد أحد أصدقائه يقتني أكثر من نسخة ليفرقها - بالمجان -على بعض معارفه... وهنا نفتح قوسا صغيرا، ونتطرق إلى ما يعرف بالأمية الثقافية.. فلا يقرأ الكتابات الأدبية غير الكتاب أنفسهم !

والحديث عن أزمة القراءة يجرنا إلى الحديث عن النشر الإلكتروني..من دون أن ننسى أنه، أحيانا، يفاجأ الكاتب باختفاء مشاركاته من إحدى المجلات الإلكترونية ، بعد حذف الموقع .. لأسباب مادية بالأساس !

هل يمكنكم أن تحدثونا -أصدقائي- عن مكابداتكم مع النشر ؟

في انتظار مشاركاتكم البهية في هذا الملف ..

تقبلوا كل الود" .

لن تندهش -عزيزي القارئ - إن علمت أن الكثير من الأصدقاء تجاهلوا المسألة بطريقة دبلوماسية للغاية، وكأنما لم يتوصلوا بأي شيء .. حتى كلمة اعتذار عن المشاركة في رسالة إلكترونية لم أتوصل بها... علما أننا تعودنا تبادل الرسائل.. فقط توصلت، بعد أيام، ببضعة رسائل.. منهم من يعتذر لانشغالاته الكثيرة، ومن يسأل عن فسحة وقت طبعا.. تهرب لطيف ومن يؤجل الرد حتى بداية الاسبوع حسب التقويم الإفرنجي حتى يكون مزاجه رائقا وصاحيا، ومن تعتذر لأن حالتها الصحية ليست على ما يرام، ويمكن أن تجري عملية جراحية... ومن يقول أنه بعيد عن النت منذ أيام ، وسيتصل بي - هاتفيا- لاحقاً...

المهم أن لا أحد يرغب في الزج باسمه البراق في مثل هكذا فضائح!

هي انشغالات الدنيا...

أو لنكن صرحاء أكثر،هو موضوع مثير للشجن، و يستحسن إغلاقه بالشمع الأحمر في قارورة صماء ، وترمى في بحر الظلمات الهادر.

* قاص من المغرب